— ١ —

الإسلام والسيف

تعود الغربيون أن ينظروا إلى الإسلام على أنه دين يتميز بطابعه الحربى ، وإذا ذكر السيف فى النصوص الإسلامية فهمه الغربيون فهما حرفيا ، ولم يتأت لهم قط أن يسألوا أنفسهم عما إذا كان له معنى آخر .

ومما لا شك فيه أن الإسلام لا يخلو من جانب حربى ؛ ولكن ذلك ليس خاصا بالإسلام : فإنه يوجد فى أكثر الأديان ، ويوجد فى المسيحية . إننا لا نريد فى هذا المقام أن نذكر كلمة المسيح نفسه : « لم آت لأحمل إليكم سلاماً وإنما أتيت بالسيف » لأنها قد تحمل محمل السخرية .

ولكن تاريخ المسيحية ، فى العصور الوسطى ، أعنى تلك العصور التى انتشرت فيها وازدهرت ، يقدم لنا الدليل الكافى على جانبها الحربى ؛ بل إن الديانة الهندية ، التى يأخذ عليها كثير من الناس ، أنها لا تدعو إلى العمل ، لا تخلو من الجانب الحربى الذى يتمثل فى بعض نصوصها .

إن أى شخص لم يعمه رأى فطير عن رؤية الحق ، من السهل عليه أن يفهم أن الحرب ما دامت موجهة ضد هؤلاء الذين يعبثون بالنظام الاجتماعى ، فإنها تعتبر مشروعة : من أجل إعادة النظام واستتبابه ، إنها ليست إلا مظهراً من مظاهر « العدل » حينما يفهم العدل بمعناه الأعم . لابد إذن من الجانب الحربى فى كل دين لتحقيق العدالة ، وإشاعة الأمن ، ونشر الطمأنينة والنظام .

ومع ذلك فإن هذه النظرة إلى الحرب إنما هى النظرة الظاهرة الشكلية .

أما النظرة الحقيقية الباطنة ، فإنها تنظر إلى الحرب على أنها رمز للجهاد العنيف الذى يجب أن يقوم به الإنسان ضد أعدائه الذين بين جنبيه : أعنى ضد كل العناصر التى تعمل فى داخله ضد النظام والوحدة . وسواء كنا بصدد النظام فى المجتمع أو بصدد النظام الروحى للشخص ، فإن الحرب يجب أن تتجه أيضاً وباستمرار إلى توطيد التوازن والتناسق — من أجل ذلك تعلقت حقيقة « بالعدل » — وإعادة الوحدة نوعا ما بين مختلف العناصر التى تتعارض وتتصارع فيما بينها ، وهذا يرشد فى وضوح إلى أن نتيجة الحرب الطبيعية هى الإنسجام .

والعلة الوحيدة التى تبرر وجودها ، فى الإسلام إنما هى السلام ، والسلام لا يتأتى حقيقة إلا بالاستسلام التام للمشيئة الإلهية : الإسلام .

وأظن أننا لسنا فى حاجة إلى أن نبين العلاقة الوثيقة فى اللغة العربية بين كلمة الإسلام والسلام : فإن ذلك من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تبيان . وفى السنة الإسلامية يتمثل هذان المعينان للحرب ، وتتمثل نسبة أحدهما إلى الآخر واضحة جلية فى حديث شريف قاله الرسول ، صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من إحدى الغزوات وهو : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . فالحرب المقدسة الخارجية هى الجهاد الأصغر ، بينما الحرب الداخلية : حرب النفس ، هى الجهاد الأكبر . وأهمية الجهاد الأصغر إذن تعتبر ثانوية بالنسبة لأهمية الجهاد الأكبر . وفى مثل هذه الأحوال يكون من الطبيعى جداً أن ما يستعمل فى الحرب الخارجية قد يتخذ رمزا فيما يتعلق بالحرب الداخلية ويتمثل ذلك على الخصوص فيما يتعلق بالسيف .

ومما ينبغى ملاحظته أن الخطيب أثناء خطبة الجمعة ، يمسك بيده سيفا .

وإنه لمن الواضح أن الخطيب حينئذ ليس فى حالة حرب بالمعنى العادى لهذه الـكلمة ؛ على أن سيفه عادة يتخذ من خشب : فلا يمكن والحالة هذه إلا أن يكون رمزا .

إنه على الخصوص رمز لقوة تأثير الـكلام فى النفس .

أما حدّاه فإنهما رمز للبناء والهدم بواسطة الأسلوب : إن الخطيب يمكنه بالخطابة أن يقود المستمعين إلى الإيمان بفـكرة أو أن ينفى من رؤسهم الإيمان بها .

وهذه المعانى الرمزية للسيف لا توجد فى الإسلام فحسب ، وإنما وجدت فى غيره من الديانات .

والسيف ، أحيانا ، رمز للمحور ، وهذه الفـكرة نفسها تذكرنا بالهدف الذى اتخذه الإسلام للحرب المقدسة ، سواء كانت داخلية أم خارجية : أعنى التناسق والإنسجام ؛ ومن البين الواضح أن المحور هو المـكان الذى ينسجم عنده المتعارضون ويزول تعارضهم ، أو بتعبير آخر : هو مكان التوازن الـكامل ، وهو الوسط الذى لا يطرأ عليه التغير .

ومما ينبغى ملاحظته بالنسبة للإسلام ، أنه يفرق بين «حرب» و «جهاد» فإذا كان الأمر أمر مبادىء عليا ، أمر إعلاء كلمة الله : فالواجب الجهاد أعنى الحرب المقدسة ، الحرب من أجل الحق . وذلك هو المشروع فى الإسلام . أما غير ذلك فإنه حرب وليس بجهاد . وهكذا يرمز السيف فى الإسلام إلى التوازن الاجتماعى « العدالة » . وإلى سيطرة الإنسان على أهوائه « الجهاد

الأكبر » وإلى وجوب انسجام الفرد والمجتمع فى وحدة لا تعارض فيها كوحدة المحور الذى لا يعتريه قط التغير .

إن ما سبق إنما هو جمع لبعض الملاحظات التى كان من الممكن أن نتوسع فيها ونتعمق ولكنها ، على ما هى عليه ، تبين فى وضوح أن الذين لا يفهمون من معنى السيف فى الإسلام إلا المعنى المادى بعيدون كل البعد عن الحقيقة .

(٢)

أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب

إن كثيراً من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية ، أو يفقهوا حقيقة ما أخذوه عن الحضارة العربية فى القرون الماضية ؟ بل ربما لم يدركوا منهما شيئاً مطلقاً . وذلك لأن الحقائق التى تلقى إليهم ، حقائق مشوهة ، حظها من الصحة قليل : فإنها تبالغ كل المبالغة فى الحط من شأن الثقافة الإسلامية ، والتقليل من قدر المدنية العربية ، كلما أتاحت الظروف لأصحابها ذلك . ويلاحظ أن دراسة التاريخ فى المعاهد الغربية لا توضح هذا التأثير . بل إن الحقائق تناولتها يد التحوير والتحريف ، قصداً فى كثير من الحوادث عظيمة الشأن جليلة الخطر . مثال ذلك ما هو شائع معروف من أن أسبانيا ظلت تحت الحكم الإسلامى عدة قرون : بينما لا يذكر التاريخ الغربى قط ، أن صقلية والجزء الجنوبى الحالى لفرنسا كانا تحت الحكم الإسلامى أيضاً . وربما عزا البعض هذا الإهمال من المؤرخين إلى تعصبهم الدينى ، ولكن ماهى حجة المؤرخين المعاصرين — وغالبهم لادينى — فى موافقتهم أسلافهم فى قلب الحقائق ؟ لهذا ينبغى أن ندرك مقدار زهو الغربيين وكبريائهم ، مما منعهم عن إدراك الحقائق الصحيحة ، ومقدار ما هم مدينون به للشرق . والأغرب من ذلك كله : أنه بينما يعتبر الأوربيون أنفسهم الورثة المباشرين للمدنية اليونانية القديمة ، فإن الحق يدحض زعمهم هذا : إذ أن الواقع المعروف من التاريخ نفسه ، يثبت لنا أن علوم اليونان وفلسفتهم لم تنتقل إلى الأوربيين إلا بواسطة المسلمين ، وبعبارة أخرى لم تصل المخلفات العقلية لليونانيين إلى الغرب ، إلا بعد أن درسها الشرق . ولولا علماء الإسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون جاهلين بتلك العلوم زمناً طويلا ؛ بل ربما لم

يدركوها كلية . وينبغى أن نلاحظ أننا نبحث هنا عن مقدار تأثير الحضارة الإسلامية لا العربية فحسب ، كما يختلط على البعض أحياناً ، وذلك لأن معظم من حاولوا نقل هذه الثقافة الإسلامية لم يكونوا من العرب الخلص ، وإذا كانت لغتهم عربية ، فإن ذلك ناتج عن تأثرهم بدينهم الإسلامى ، وما دمنا قد ذكرنا اللغة العربية، فإننا نلاحظ دليلا واضحاً يثبت لنا انتقال المؤثرات الإسلامية فى الغرب : وهو تلك الكلمات العربية الأصل والمنبت ، التى تستعمل تقريباً فى كل اللغات الأوربية ؛ بل ما زالت تستعمل حتى وقتنا هذا ، على أن معظم الغربيين الذين يستعملونها يجهلون حقيقة مصدرها كل الجهل . وبما أن الكلمات هى التى تستعمل لنقل الأفكار ، وإظها ما تكنه النفوس ، فإن من السهل علينا جداً أن نستنتج انتقال تلك الأفكار والآراء الإسلامية نفسها ، وفى الحق أن تأثير الحضارة الإسلامية ، قد تناول لدرجة بعيدة وبشكل محسوس ، كل العلوم ، والفنون ، والفلسفة ، وغير ذلك . وقد كانت بلاد الإسبان مركز الوسط الهام الذى انتشرت منه تلك الحضارة . وليس غرضنا الآن أن نفحص كل هذه الأنواع بالتفصيل ، ونرى مقدار ما خلفته الثقافة الإسلامية فيها ، ولكننا نركز بحثنا فى بعض نقط ، نعتقد أنها من الأهمية بمكان ، وإن قل من يدركها فى وقتنا هذا .

أما عن العلوم فمن السهل أن نفرق بين العلوم الطبيعية ، والعلوم الرياضية ، فأما عن الأولى فإنا نعلم علم اليقين : أنها انتقلت بكلياتها وجزئياتها إلى أوربا ، عن طريق الحضارة الإسلامية ، مصبوغة بالصبغة الإسلامية تماماً . فالكيمياء احتفظت دائماً باسمها العربى الذى يرجع أصله إلى مصر القديمة ، والذى كان له معنى من أعمق المعانى التى لم يعرفها الكيمائيون الحديثون حقيقة . ولنضرب مثلا آخر ، ذلك علم الفلك ، فإن أكثر اصطلاحاته الخاصة ماتزال محتفظة فى كل اللغات الأوربية بأصلها العربى ، كما أن كثيراً من النجوم ما يزال علماء الفلك

فى كل الأمم يطلقون عليها أسماءها العربية . وهذا يرجع إلى أن مؤلفات الفلكيين اليونانيين القدماء ، مثل بطليموس الإسكندرية ، كانت معروفة فى التراجم العربية ، ومجتمعة مع المؤلفات الإسلامية . ومن السهل جداً أن نوضح أن كثيراً من المعارف الجغرافية الخاصة بالمناطق السحيقة فى آسيا وأفريقيا ، عرفت من الرحالة العرب الذين جابوا كثيراً من الأقطار وحملوا معهم معلومات جمة . أما من ناحية الاختراعات ـ وهى تابعة للعلوم الطبيعية ـ فقد انتقلت أيضاً بنفس الطريق أى بواسطة المسلمين . وما تزال قصة الساعة المائية التى أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى الامبراطور شارلمان ، عالقة بالأذهان ، ثابتة الواقع .

أما الرياضيات فيجب أن نعيرها التفاتاً خاصاً ، وذلك لأهميتها فى هذا البحث ، فإن ميدانها الواسع لا نرى فيه علوم اليونان فحسب ؛ بل نرى فيه أكبر الأثر للثقافة الإسلامية ، مضافا إليها علوم الهند أيضاً . أما اليونانيون فقد بلغوا درجة الكمال فى الهندسة ، وعلم الأرقام . ويلاحظ أن الأخير يرتبط دائماً مع الأول فى الأشكال الهندسية المناسبة . وهذا التوفق الذى كان للهندسة يظهر لنا جلياً فى الجملة التى حفرها أفلاطون على مدخل مدرسته : (لا يدخله إلا عالم بالهندسة) .

ولكن يوجد علم آخر من الرياضيات يتبع علم الأرقام ، ولكنه لم يكن معروفاً ـ كالعلوم الأخرى ـ فى اللغات الأوربية بالإسم اليونانى : لأنه لم يكن معروفاً بين اليونانيين القدماء : هذا هو علم الجبر الذى كان مصدره الأول الهند ، والذى يسهل علينا من اسمه العربى أن نعرف طريق انتقاله إلى الغرب .

حقيقة أخرى حان حين ذكرها ولو أنها قليلة الأهمية ، ولكنها تدل أيضاً على ما قدمناه ، وهى أنه من الشائع فى كل مكان ، أن الأرقام التى يستعملها

الأوربيون هى نفس الأرقام التى استعملها العرب ، ولو أن مصدرها الأول هو الهند ، لأن علامات العد التى كان العرب يستعملونها قديماً ما هى إلا حروف الهجاء نفسها .

وإذا انتقلنا من بحث العلوم إلى بحث الفنون ، فإننا نلاحظ أن كثيراً من المعانى التى جادت بها قرائح الكتاب والشعراء المسلمين فى الأدب والشعر ، قد أخذت واستعملت فى الأدب الغربى ؛ بل أكثر من هذا ، فإن بعض كتاب الغرب وشعرائه قد قلدوا تمام التقليد بعض كتاب المسلمين وشعرائهم . وكذلك نلاحظ أن أثر الثقافة الإسلامية واضح كل الوضوح ، وبصفة خاصة فى فن البناء ، وذلك فى العصور الوسطى : فمن ذلك شكل القوس المعقود الذى صار متميزاً بنفسه حتى صار يدل على طريقة خاصة للبناء كان يستعمل فيها . وقد كان مصدره فن البناء الإسلامى ، ولو أن كثيراً من النظريات الخيالية اخترعت لمخالفة هذه الحقيقة . ومما هدم هذه النظريات وجود رواية يتناقلها دائماً البناؤن أنفسهم ، وهى تثبت انتقال هذه الطريقة من الشرق . وقد كان لهذه الحقيقة صفة سرية جعلت لغتهم معنى رمزياً ، فكانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الأرقام . وقد نسب هذا العلم فى مصدره الأول لهؤلاء الذين بنوا هيكل سيدنا سليمان . ومهما يكن من أمر هذا المصدر البعيد فلا يمكن بحال ما أن يكون انتقاله إلى أوربا إلا بواسطة العالم الإسلامى . ومما يحسن ذكره أن هؤلاء المعماريين — وقد كانوا هيئات متحدة لها شعائر خاصة — كانوا يعتبرون أنفسهم كأنهم أجانب فى الغرب حتى فى مساقط رؤوسهم . وقد ظلت هذه التسمية حتى الآن . على أن هذه الأمور صارت غير معروفة إلا للقليلين جداً .

فى هذه النظرة العجلى ، ينبغى أن نذكر بصفة خاصة نوعاً آخر هو الفلسفة . فقد بلغ التأثير الإسلامى فى القرون الوسطى مبلغاً عظيما لم يستطع

أشد خصوم الشرق تعصباً أن ينـكر قوته . وهذا صحيح فإن أوربا لم يكن فيها من وسيلة أخرى لمعرفة الفلسفة اليونانية فى ذلك الزمن ، وذلك لأن التراجم اللاتينية لأفلاطون وأرسطو — وهى التى استعملت حينئذ — لم تنقل أو تترجم من الأصل اليونانى مباشرة ؛ بل أخذت من الترجمة العربية السالفة . وأضافوا إليها ما كتبه المعاصرون المسلمون فى الفلسفة الإسلامية . ومن أولئك المعاصرين : ابن رشد وابن سينا وغيرهما .

والفلسفة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت باسم «الفلسفة المدرسية» كانت تتميز بها الفلسفة الإسلامية ، واليهودية ، والمسيحية ، ولـكن من الإسلامية استمد النوعان الآخران مصدرها ، بل إن الفلسفة اليهودية وهى التى ازدهرت فى أسبانيا كانت لغتها عربية . وذلك ثابت ويرى فى المؤلفات الهامة لموسى ابن ميمون . وعنه نقل فيلسوف يهودى آخر — بعد قرون عديدة — كثيراً من فلسفته الخاصة ذلك هو (سبينوزا) .

وليس من الضرورى أن نصر على بحث أشياء معلومة لـكل من درس شيئاً من تاريخ الفـكر ، بل يحسن أن نبحث أخيراً فى أشياء أخرى من نوع مختلف لا يعرفه معظم الحديثين ، خصوصاً فى الغرب ، بل لا يكاد يكون لأحد ما أية فـكرة ذات أهمية عنه . ولـكن من وجهة نظرنا نرى له أهمية كبرى أكثر من كل المعارف الخارجية التى تحتويها العـلوم والفلسفة ، وما نقصده بهذا هو التصوف ، وما يتصل به ، أو يعتمد عليه من أنواع المعرفة الأخرى الثانوية ، التى تختلف عن تلك العلوم التى يدرسها الحديثون كل الاختلاف .

وليس للغرب فى وقتنا هذا شىء من أمثال تلك العلوم على حقيقتها ، بل أكثر من هذا أن الغرب لا يعرف أيضاً من المعارف الحقة كالتصوف

أو ما يماثله شيئاً مطلقاً . على أن هذه الحال لم تكن هى الحال فى القرون الوسطى . وهذه المعارف لها أيضاً أثرها الإسلامى البين الواضح بأجلى وضوح فى تلك العصور . ومن السهل جداً ملاحظة أثر ذلك فى بعض المؤلفات التى تختلف معانيها الحقيقية عن الثمرات الأدبية كل الإختلاف .

وقد بدأ هذا النوع يتضح لبعض الأوربين أنفسهم ، وذلك خلال دراساتهم لأشعار « دانتى » الإيطالى ، ولكنهم لم يدركوا ماهية طبيعتها الحقة . ومنذ سنين عدة كتب المستشرق الإسبانى « دون ميجيل آسين بلاثيوس » كتاباً عن المؤثرات الإسلامية فى مؤلفات « دانتى » جاء فيه أن جزءاً كبيراً من الرموز والإشارات التى استعملها « دانتى » كان يستعملها قبله بعض المحققين والكتاب المسلمين ، وبخاصة سيدى محيي الدين بن عربى . ولكن لسوء الحظ نرى : أن ملاحظاته لم تتعد التخيلات الشعرية . على أن هنالك كاتباً آخر إيطالى الجنس هو « لويجى فاللى » ، الذى توفى حديثاً ، تعمق بعض التعمق فى البحث ، فذكر أن دانتى لم يكن وحده الذى استعمل الإشارات المماثلة لما كان مستعملاً فى الشعر الصوفى ، الفارسى والعربى ، بل إن كثيراً من الشعراء المعاصرين لدانتى فى مملكته كانوا أعضاء فى اتحاد أو هيئة سرية تسمى « أمناء الحب » وكان دانتى نفسه أحد رؤساء تلك الهيئة .

ولما حاول « لويجى فاللى » أن يحل ألغاز لغتهم السرية لم يتمكن من إدراك ما كانت تتميز به تلك الهيئة ، أو ما يماثلها من الهيئات التى وجدت فى أوربا أيام القرون الوسطى . على أن الحق هو أن بعض الشخصيات السرية كانت تستتر خلف تلك الهيئات لتكون مصدر إرشاد لها . وقد كانت تلك الشخصيات السرية ، تعرف بأسماء مختلفة ، من أهمها تلك التسمية « إخوان

الوردة والصليب » وليس لهؤلاء قواعد مكتوبة يسيرون عليها . كذلك لم يكن لهم اجتماعات معينة . وكل ما كانوا يعرفونه به ، هو أنهم وصلوا إلى حالات روحية خاصة . ويمكننا أن نصفهم بأنهم صوفيون غربيون ، أو على الأقل متصوفة فى درجات عالية .

وقد قيل إن هؤلاء « الإخوان » الذين كانوا يتسترون بألبسة البنائين ورموزهم ، كانوا يعلمون الكيمياء وعلوماً أخرى تماثل ما كان مزدهرا من العلوم فى العالم الإسلامى .

وفى الحق أنهم كانوا حلقة اتصال بين الشرق والغرب . وكانوا على إتصال مباشر بالصوفيين المسلمين . وقد كان ذلك الإتصال يستتر وراء رحلات مؤسسهم الخيالى . وليس هذا معروفا فى التاريخ الذى لا يتعمق كثيراً فى البحث ؛ بل يكتفى فقط بمظهر الحوادث الخارجى ، مع أن هناك المفتاح الحقيقى الذى يفتح لنا مغاليق كثير من الأشياء ولولاه لاستمرت دائماً غير واضحة بالمرة .

هذا جزء من كلّ من أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب . ولكن الغربيين لا يريدون أن يعترفوا به فى وضوح ، لأنهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الشرق عليهم . ولكن الزمن كفيل بتبيان الحقائق التى يريدون إخفاءها .

الفصل الثالث

فى المعـــرفة

١ — طرقها المسدودة

٢ — طريقها الصادق

تمهيد

كيف نصل إلى المعرفة : المعرفة الحقة ، معرفة ما وراء الطبيعة . كيف نخترق الحجب ، ونكشف المساتير ، ونزيل النقاب عن الملأ الأعلى : فنصل إلى الروح ، وإلى الملائكة ، وإلى الله ؟ كيف نصل إلى اليقين ؟ أيكون ذلك عن طريق الروحانية الحديثة ، أم عن طريق الفلسفة الحديثة ؟

سنذكر فيما يلى رأى الشيخ عبد الواحد فى هذين الأمرين اللذان يعدهما بعض الناس خطأ ، وسائل المعرفة .

ثم نتبع ذلك بالوسيلة الصحيحة للمعرفة فى نظره وهى التصوف .

الروحانية الحديثة وخطؤها [1]

من أخطر الأغلاط الغربية الحديثة ، واحدة ثبتت فى أمريكا منذ أقل من مائة سنة أى : (سنة ١٨٤٧ م) ، وعرفت باسم [الروحانية الحديثة] ويمكن تحديد معناها بأنها ثبوت إمكان الاتصال بالموتى بواسطة وسائل مادية ٠٠٠ أما كيف بدأت ؟ أولا : فإنها لاحت فى بعض ظواهر طبيعية كانبعاث أصوات ، وتحرك أشياء فى أحد المنازل بدون ما سبب واضح لها ، أما هذه الظواهر فقد لوحظت فى كل زمان ومكان فلا يمكن القول بأنها ظواهر شاذة فلماذا إذن يستولد منها الغربيون عقيدة جديدة فى تلك الحالة الخاصة ؟ بينما لم يفكر أحد فى شيء من ذلك من قبل ! ! ! ٠٠

الحق أنهم ثاروا على تلك المادية المنتشرة فى العالم فعملوا على إيجاد وسيلة سرية تعمل على هدمها ، ولكن إذا اعتبرنا أن غايتهم من ذلك حسنة ؛ إلا أن الوسائل التى استعملوها لبلوغ غايتهم لم تكن كذلك .

وحقيقة أن الباطل هو شر دائماً ولذا يمكننا أن نوافق على ما يدعيه البعض من أن الغاية تبرر الواسطة ، وفى الواقع أن الواسطة إذا لم تكن صالحة تماماً فإنها كثيراً ما تنقلب سريعاً ضد الغاية المرجوة ، وإننا إذا تخيلنا صورة الحياة بعد الموت ، على مثال صورة حياة الجسم على الأرض ، وهى التى انقاد إليها أتباع العقيدة الجديدة ، فيمكننا أن نعتبر أن ما يسمى « الروحانية الحديثة » ما هى فى الحقيقة إلا مادية من نوع آخر ، بل أكثر ضرراً من المادية لأنها

---

(١) مجلة المعرفة : صفر سنة ١٣٥٠ ، يولية سنة ١٩٣١ .

تخلق الأوهام والتخيلات فى حقيقة طبيعتها حتى تتمكن من التأثير فى الذين لم يقبلوا الآراء المادية الصريحة الشائعة ، أكثر من هذا أن فيها خطراً آخر ، ويكفى أن نرى كم من الأشخاص — بواسطه ما يسمى الاتصال بالموتى — أصيبوا بالجنون أو الخراب ثم الانتحار ، عند ذلك يكون لنا الحق فى التصريح ، بأن هذا التعليم الذى يجلب مثل هذه العواقب ، هو لعنة على بنى الإنسان ، وهذه العدوى المزمنة التى رسخت فى عقول الكثيرين من الأشخاص الطاهرى السريرة ، وذوى النوايا الطيبة ، هذا الخطر ينتشر فى الشرق ، بل لا نغالى إذا قلنا إنه امتد إلى الشرق الأقصى حيث نلاحظ — منذ سنوات قليلة — انبعاث دين جديد فى الهند الصينية يسمى « كاؤداى » ويدعى أنصاره أنه لا يستمد تعاليمه عن طريق الوحى بل يستمدها مباشرة من الله بواسطة [سلة] متحركة .

وينبغى أن يفهم القارىء أننا بعيدون جداً عن إنكار حقيقة أنواع الظواهر المختلفة التى يرى فيها «الروحانيون الحديثون» برهانا على وجهة نظرهم ، فإن هذه الظواهر — كما سبق القول — كانت معروفة دائماً عند القدماء ، بل كانوا أكثر علماً بها ممن يعرفونها الآن .

ولكننا ننكر تفسيرها الحديث الذى تفسر به هذه الحقائق بنسبتها إلى فعل « الأرواح المجردة » ، وهى التى يقصد بها الشخصيات الإنسانية التى زالت عن عالم الوجود الأرضى .

كيف يقبل التفكير السليم أن « الأرواح المجردة » يمكنها تحريك مائدة ، أو استيلاء قوة خفية على اليد تجعلها تكتب أو ترسم ، أو أشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل ؟

مثل هذه الإثباتات لا تدل إلا على عدم العلم — الذى أصبح تقريباً عاماً

فى وقتنا هذا — باختلاف الظروف فى حالات الوجود المتباينة ، وينبغى أن نذكر أنه إذا أمكن للإنسان أن يتصل بالأرواح — إنسانية أو غير إنسانية — فإن ذلك لا يكون إلا بأن يصير نفسه متيقظاً فى حالة وجوده الخاصة التى تطابق الحالة نفسها ، والتى تكون فيها تلك « الأرواح » فعلا ، ولكن هذه مسألة أخرى ليس لها أية صلة بتعاليم وأفعال « الروحانية الحديثة » .

وفى الحقيقة توجد عناصر كثيرة من أنواع مختلفة ربما ساعدت على إيجادها ؛ على حسب الحالات المختلفة ، ولكن ينبغى أن نفرق بين هذه العناصر بدقة ، وسنشير بإيجاز إلى أنواعها المختلفة حيث لا يمكننا أن نفسر كلا منها تفسيراً كاملاً مفصلاً لأن ذلك لا يتسع البحث فيه الآن : —

(١) من أهم العناصر التى تحدث هذه الظواهر تلك التى تحدث فى معظم الحالات ، وكثيراً ما تكون منفردة ، وهى التى فى قوى الإنسان العقلية — هذه القوى التى يمكن أن تتسع وتكبر أكثر مما يظنه علماء النفس الحديثون ، أو الذين يشتغلون بدراسة الحالات الشاذة .

هذه القوى كامنة فى كل إنسان ، وإذا نمت واتسعت بطابيعتها فإن ذلك يكون فى حالات نادرة ، لكن يمكن تنميتها صناعياً فى بعض الأشخاص بوضعهم فى حالات خاصة مثـــل تلك الحالات المعروفة تحت الإسم العام « التنويم المغناطيسى » وهى التى فيها يمكن للإنسان أن يحس بأشياء بدون أن يتصل جسمه بها ، وكذلك يمكنه تحريكها ، كما يمكنه أيضاً رؤية أشياء مخفاة عن حواسه العادية ، أو بعيدة عنه فى الزمان أو فى المكان وغير ذلك .

ولا يمكن لغير الرجل المادى — فى أضيق حدود معنى هذه الكلمة — أن يقول بأن الإنسان محدود بالقياس إلى جسمه ، ولكن الروحانيين —

بتسميتهم هذه التى درجب فى الفلسفة الغربية — يشكون جداً فى قدرة الإنسان على احتمال ما هو فوق مستوى قواه الجسمية ، أو تلك القوى التى تتصل وثيقاً بالجسم وتظهر فى الحياة المعتادة لأى فرد ، ومن جهة أخرى ينبغى أن نذكر أن تلك التى تسمى القوى الشاذة ـ وهى التى نتكلم عنها ـ ليس فيها شىء روحى فى الحقيقة أكثر من القوى المعتادة .

وإن التصور الذى جعل الإنسان الحى يتكون من جزئين أو عنصرين فقط — وهو ما انتشر فى الفلسفة الحديثة خاصة وفى العقل الغربى عامة — هذا التصور هو الذى سبب هذا الاضطراب ، لأنه صيّر الناس جاهلية بالفرق الأساسى بين النفس والروح ، وإن طبيعة المقدرة التى تظهر فى الأشخاص الذين ينامون تنويماً مغناطيسيا — وهم الذين يسمونهم « الروحانيون الحديثون » بالوسطاء — ليست«روحية» بالمرة بل هى «نفسية» تماماً ، وهى تخص الحالات التى يمكن وصفها بأنها ألطف من الحالات العادية كما أنها أكثر اتساعاً ، وأعلى منزلة أيضاً فى درجات الوجود ؛ كما يجب أن تكون الحالات الروحية .

وإنما مثل هذه القوى فى الإنسان هو إنماء الإحساس بالاتساع لا الإحساس بالارتفاع .

هذه الحالات النفسية التى تظهر إما فى التنويم المغناطيسى ، أو فى بعض حالات من الأمراض العقلية ينشأ عنها مايسميه علماء النفس خطأً « بالشخصيات المتعددة » لأنها تظهر منفصلة عن الحالات العادية ، وربما كان هذا خطأً فى استعمال الكلمات ، وإلا فإنه يكون خطأً فاحشاً لأنه لا يمكن لعقل ما أن يتصور أن الإنسان الحى له أكثر من شخصية واحدة .

وحقيقة أن كل حالات الكائن ما هى إلا مظاهر جزئية لشخصية واحدة غير متغيرة .

وصحيح أن الإنسان فى حالاته العادية لا يحس بالأعمال التى يؤديها ، أو المعارف التى يستقيها فى الحالات الأخرى ، ومن السهل جداً أن ندرك هذا لأن الحالة العادية هى أضيق الحالات مجالا ، كما أنها لا تعتمد إلا على الشروط الجسمية ، بينما الحالات الأخرى تكون مطلقة الحرية ، وإننا لا نجد غرابة فى هذا لو فكرنا فقط فى التفرقة التى توجد عادية فى كل فرد بين شعوره بحالة اليقظة وشعوره بحالة النوم .

ينبغى أن نوجه بحثنا نحو نقطة واحدة : هى أن كل مايسمى (بالظواهر) إما أن يصدر من القوى العقلية فى الحالات العادية أو من قوى الحالات النفسية الأخرى . هذه الظواهر تمثل فقط الجزء الظاهرى من الكائن ، وواضح من الكلمات نفسها أن (الظواهر) — من أى نوع أو درجة — هى كلها من الظاهر وليست من الباطن : أى أنها تعديلات سطحية للكائن وليست عناصر مكونة لذاته الباطنية العميقة ، والقوى التى يمكن يسميتها تماماً باطنية ينبغى أن يبحث عنها فى حالات تختلف تماماً عن الحالات النفسية وتسمو كثيراً عن الظواهر العادية أو الشاذة .

(٢) إذا رجعنا إلى الحالات النفسية التى تكلمنا عنها فينبغى أن نقرر أن الإنسان فى هذه الحالات — كما فى الحالة العادية — يحاط بقوى فعالة مختلفة ألطف من تلك التى فى عالم الجسم والحس ، ولكن بعضها ربما كان مشابهاً — لا ذاتياً — لقوى مثل الكهرباء وغيرها ، ولا يخفى أن هذه القوى يمكن للطبيعى العادى الاستدلال عليها بتأثيراتها المحسوسة .

هذه القوى النفسية التى كان يعبر عنها [الطاو — صى] الصينيين بأنها (قوى سابحة) كان لها قوانين مثل أى قوانين أخرى طبيعية ، وربما كان الغرض منها علمياً فإذا أمكن أن تجمع وتركز بشروط خاصة ، فإنه ينبعث

منها تأثيرات ربما تظهر عريبة لمن يجهلون مثل هذه الأشياء ، مثلها فى ذلك مثل ظهور التأثيرات الـكهربائية لمن يجهلون الطبيعيات .

أضف إلى هذا أن الإنسان إذا اتصل بمثل هذه القوى يمـكنه ـ بدون أن يشعر ـ أن يلبسها لوقت ما شخصية ظاهرية بزوال شخصيته الخاصة ، ومن هذا يمـكننا تفسير ظواهر كثيرة .

وهنا يمـكننا أن نرى أحد الأسباب للأخطار التى يقع فيها من يمارس (الروحية الحديثة) أو ما يماثلها : يعرض الفرد نفسه لتأثيرات ربما أثرت فيه أحوال كثيرة فتبعث فى كائنه الخاص عناصر الاضطراب ، وعدم الاتزان النفسى ، تذهب به أحيانا إلى نوع من الوحدة والعزلة ، ويمـكننا أن نجد مايماثل هذه الوحدة فى بعض ما يسمى (بالشخصيات المتعددة) ـ التى تـكلمنا عنها سابقاً ـ .

هذه الأخطار لا يستهان بها ، وربما لا يمـكن تجنبها إذا كان الأشخاص الذين يتصلون بهذه القوى جاهلين تماماً بطبيعتهم ، كما هى الحال مع الأكثرية العظمى لمعاصرينا، وخاصة « الروحانيين الحديثيين » الذين هم فى الحق كالأطفال يلعبون بالنار .

(٣) الإنسان فى حالته العقلية أو النفسية يجد نفسه متصلا ـ كما فى الحالات العادية ـ بكائنات أخرى موجودة فى حالات تتفق مع حاله ، وأهم ما نقصده هنا بالـكائنات ، هم بنو البشر وهذا هو ما يحدث لهؤلاء الذين يشتركون فى (جلسات) الروحانية الحديثة بدون رغبة منهم، أومعرفة فيوصلون أفـكارهم إلى الوسيط ، وليست أفـكارهم هى المطابقة للواقع حينئذ فحسب ، بل أيضاً وغالباً أفـكارهم البعيدة التى تلوح لهم كأنهم نسوها لبعد العهد بها ،

فيعجبون جداً من اكتشافها ، ويمكن للأشخاص الغائبين أيضاً أن يتصلوا بأنفسهم مهما كانوا بعيدين إذا كانوا فى مثل هذه الحال متجردين من كل القيود الجثمانية ، ويمكن إجراء هذه التجربة بشعور من الأشخاص ، أو بدون إحساسهم بها : وتحدث الأولى فى الحالات النادرة للأشخاص الذين لهم معارف خاصة ، والذين يعملون هذا لغرض محدود كما حدث عند ابتداء العلم (بالروحانية الحديثة) .

وتحدث الثانية فى الحالة العامة وهى اتصال أى فرد ـ وخاصة أثناء النوم ـ ويجدر بنا أن نضيف إلى ما ذكر أنه يوجد بعض المظاهر فى الحيوانات لأن لهذه أيضاً حالات لطيفة فى كائنها الخاص .

(٤) وفى بعض الحالات تحدث الظواهر — طبيعية كانت أو مفتعلة — بعناصر تنبعث حقيقةً من الموتى ، ولكن ليس اتصال فعلى بشخصياتهم الحقيقية: وهذه العناصر ما هى إلا بقايا نفسية مشابهة لبقايا الجسم التى يتركها الميت بعده بتحلله ، لأنه يوجد فى الطبقة النفسية عناصر تلازم الخالد من الكائن ، وهذه العناصر أقرب إلى الحالة الجسمية ، ولذا يمكنها أن تولد تأثيرات حسية ، وهذه البقايا النفسية تمثل حقيقة حالات خاصة من (القوى السابحة) التى سبق ذكرها قبلا ، وإذا ذكرناها على حدة فإن ذلك لأن مظاهرها جميعها يمكن اعتبارها كمظاهر حسية للموتى ، ولكن فى معنى يختلف تماماً عما يقصده (الروحانيون الحديثون) ، مثل هذه العناصر يمكن أن تأخذ مظهراً مؤقتاً للحياة ثم تعطى حينئذ إجابات آلية تعكس بعضاً من أفكار الفرد التى سبق أن كانت تختص به .

وهذا الطيف من الشخصية — إذا أمكن تسميته كذلك — هو ما كان يسميه اليهود القدماء [أوب] كما يرى فى بعض الكتب المقدسة ،

وقد أعطى إجابات فى (الاستحضارات) التى استعملت بين معظم الناس ، ولو أن الدين يحرمها بصفة عامة .

(٥) وأخيراً ليكون الموضوع تاماً ؛ ينبغى أن نذكر إمكان تداخل تلك الكائنات التى ليس لها حياة جسمية . هذه الكائنات — التى تعتبر غير إنسانية — ليس لها مطلقاً طبيعة روحية خالصة ، ولكنها بالعكس تقرب جداً من العالم الحسى ، ولهذا يمكنها أحياناً أن تحدث تأثيرات فيه ، ونريد هنا أن نشير بصفة خاصة إلى فعل الجن — ولكن ليس هنا مجال الإفاضة فى هذا الموضوع — وبما أنه لايوجد شيء روحى فى كل هذه الأشياء أكثر من تلك التى لها اتصال بالحياة الأرضية ؛ فلا ضرورة للقول بأنه لا يمكن المقارنة بينها وبين الأشياء الأخرى التى تختلف فى طبقتها ؛ كوحى الأنبياء — عليهم السلام — أو التى فى طبقة أقل ارتفاعاً ، كالمقدرة الخاصة للأولياء — رضى الله عنهم — وهى التى تنبعث فى مبدئها من العالم الروحى ، وينبغى أن نقرر أن هذه المبادىء تختلف فى حقيقتها بينما تتفق فى المظاهر الخارجية ، ولكن هذه أيضاً مسألة أخرى تلك مسألة (المؤثرات الروحية) وليس لها صلة بموضوعنا الحالى ، أما من حيث الظواهر النفسية فإننا سنصف هذا :

بعض الغربيين — وليس هؤلاء الذين يقبلون وجهة نظر فحسب الروحانية الحديثة ، بل والذين يسمونها أغراضاً علمية — يحاولون بكل جهدهم أن يكتشفوا أشياء كانت معروفة تمام المعرفة فى الأزمنة السحيقة عند الأمم الشرقية ، ويلاحظون بعض الحقائق ، ولكن يعجزون عن تفسيرها ، بينما يوجد — كما سبق أن أوضحنا باختصار — كل ما نحتاج إليه لتفسير هذه الحقائق نفسها بل وحقائق أخرى كثيرة لم يكن لديهم أقل فكرة عنها .

والنتيجة :

أن كل من يود معرفة حقيقية مثل هـــذه الموضوعات ، لا يمكنه أن يجد ضالته فى البحوث الغربية الحديثة ، بل عليه أن يرجع إلى المعارف الشرقية القديمة ؟

عبد الواحد يحيى

الروحانية الحديثة [1]

رد على رد

لو كان الأستاذ فريد بك وجدى قد قرأ ما كتبناه منذ عشر سنين تقريباً عن موضوع « الروحانية الحديثة » ، فإنه ما كان ليكلف نفسه عناء جمع هذه الملاحظات التى كتبها فى الجزء الماضى من هذه المجلة ، لأننا أجبنا عن كل منها إجابةً تامة ، وأكثر إسهاباً مما يمكننا ذلك فى هذه الصفحات القلائل ، ومع ذلك سنحاول هنا ثانياً، أن نحدد مركزنا فى مثل هذا الموضوع ؛ حتى لا يبقى مجال آخر لذلك الاضطراب الذى نشأ من هذا البحث .

ينبغى علينا أولا أن لا ننكر أنه منذ ابتداء ما يسمى بالعصور الحديثة — أى منذ ثلاثة أو أربعة قرون — شك الغربيون فى كل معارف القدماء ، ولكن ذلك إنما حدث لأنهم لم يدركوا تماماً معنى وطبيعة هذه المعارف ، وفى نفس الوقت يظهر أنهم لم يستطيعوا أن يقبلوا أى شىء خارج عن دائرة التجارب الحسية ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ظهور وانتشار المادية واتساع دائرة البحث اتساعا غير عادى فى بعض علوم خاصة تختص بالمادة فقط .

وقد كان هذا الأمر فى الغرب فحسب ؛ أما الشرق فإنه لحسن الحظ لا يزال محتفظاً للآن بمعرفته القديمة ، ولم يقبل هذه الحدود المتعسفة ولم يستسغ أيضاً تعاليم فرنسيس باكون، أو تعاليم ديكارت التى لا توضح شيئاً ماللعقول الشرقية النقية : أى التى لم تتأثر بسموم الأفكار الغربية .

والآن إن فكرة محاربة المادية المنتشرة فى الغرب بواسطة العلم المادى نفسه

---

(١) مجلة المعرفة : ربيع الثانى ١٣٥٠ هـ ، سبتمبر سنة ١٩٣١

هى فكرة خاطئة ، ولا تؤدى إلى نجاح ما ، لأن هذه الوسائل ليس لها من قيمة ؛ إلا فى دائرة خاصة ضيقة جداً ، وإذا تعدتها تكون عديمة القيمة ، ويظهر أن هذه الفكرة نشأت من توهم أن مثل هذه الوسائل هى الوحيدة [الوسائل العلمية] التى يمكن الاعتماد عليها فى محاربة المادية ، ولكن هذه أيضاً أوهام غربية ، وفى الحق أن لدينا علوماً أخرى لاتقل فى أهميتها وحقيقتها عن سابقتها ؛ تستخدم وسائل مخالفة تمام المخالفة ، غير معروفة للغربيين الحديثين .

وإذا قلنا ذلك ينبغى أن نميز بين حقيقه مسألة الظواهر الشاذة التى نتحدث عنها هنا ، والتفسيرات المختلفة التى أعطيت لها هناك . وإننا لنستغرب جداً أن الأستاذ فريد بك وجدى لايزال يصر على النقطة الأولى « للظواهر » لأنناقلنا أنفسنا إن حقيقة هذه الظواهر لا تقبل الشك ، وإنها كانت معروفة فى كل العصور ، وفى كل الأقطار ، فإن مثل هذه الحقائق شائعة الوجود وليست نادرة ، ولها من الأنواع ما يكثر عما يدركه الغربيون « الروحانيون الحديثون » أو غيرهم من الذين يحاولون دراستها .

وإننا لنأسف على أن الأستاذ فريد بك وجدى — فى هذه المسألة — يعدد كثيراً من أسماء العلماء الأوربيين والأمريكيين ، الذين اشتركوا فى هذه الدراسة ، كأننا ملزمون أن نقبل مايمليه علينا هؤلاء العلماء ، وإننا لنأسف لأننا لا يمكننا أن نسيغ للشرقى أن يعتقد أنه ملزم بأن يتبع الغربيين ، ويتقبل تعاليمهم — وخاصة فى أشياء لا تزال حقيقتها معروفة دائماً فى الشرق ؛ بينما الغرب ليس إلا باحثاً فيها فقط — ، وليس من حاجة إلى القول بأن الذين يبحثون عن شىء هم الذين لا يعرفون حقيقة هذا الشىء .

أضف إلى ذلك أن الأشخاص الذين ذكروا ليست قيمتهم متعادلة فلا يمكننا أن نضع فى وصف واحد رجلا [طبيعياً] نقدره حق قدره مثل :

وليم كروكس ؛ مع آخر نعتبره (متجراً بالعلوم) مثل : كاميل فلا ماريون ، كما علينا أن نضيف أنه إذا كان بعض الرجال قد قبل « الروحانية الحديثة » فإن كثيراً منهم اختلفوا فى وجهة نظرهم ، أو ربما صدوا أنفسهم عن أى نظرية أو تفسير ، وإننا نجد بين هؤلاء الذين صاروا « روحانيين حديثين » من اشتغل — لأسباب لا صلة لها — بالعلم مثل : سيزار لو مبروزو ، و أولفرلودج ؛ فإن الأول اشتغل بها بعد موت والدته ، والثانى بعد أن قتل ابنه فى الحرب، وهذا يظهر لنا أن مثل هؤلاء الرجال — بصرف النظر عن علومهم الخاصة — ضعاف القول جداً.

وينبغى أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن بعض العلماء لم يمنعهم تعليمهم من أن يخدعوا بالظواهر المصطنعة، كما حدث لوليم كروكس مع وسيطته فلورنس كوك، وكما حدث حديثاً مع شارل مريشيه فى الجزائر ، وحدوث ذلك سهل الإدراك جداً ، لأن هؤلاء الأشخاص — بعيدون عن حدود علومهم — ليس لهم أية كفاءة أكثر من أى إنسان جاهل آخر ، بل ربما وقعوا فى الخطأ بسهولة أكثر من أى شخص آخر ، لأنهم حينئذاك يبحثون فى أشـــياء تختلف طبيعتها وقوانينها اختلافا تاماً عن تلك التى اعتادوها ، ولأنهم يحولون استعمال وسائلهم العادية فى هذه الأشياء ، بينما هذه الوسائل لم توضع لمثل ذلك مطلقاً .

وماذا نقول فى ذلك التاجر الغنى الذى كان يتاجر بالنبيذ « جان ماير » الذى مات منذ شهور قليلة فقط ؟ صرف هذا الرجل ملايين عديدة لأنه طمع فى أن يصير يوما ما بابا « الروحانية الحديثة] ، وقد أثار حربا بلا شفقة على هؤلاء [الإخوان الدينيين] الذين تعمدوا أن يؤسسوا جمعيات ومكاتب مستقلة واضطروا أن يذعنوا لقوة المال ، وكان ذلك بالطبع تحت اسم [الأخوة — والإخاء] ، وقد أسس هذا الرجل نفسه فى باريس معهداً (علميا) لغرض إخضاع الباحثين الأحرار ، ونقصد بهم الذين لم يكونوا « روحانيين حديثين »

وباستلامهم منه إعانات مالية لم يكونوا قادرين على أن يعاوضوا شيئاً من (الروحية الحديثة) .

وفى الحق إننا لنجد عاراً فى اضطرارنا إلى التصريح بمثل هذه الأسماء والوقائع على صفحات هذه المجلة التى ننزهها عن ذكر مثل هذه الأعمال .

أما الأخطار التى تنتج من [الروحانية الحديثة] فإننا نؤكد للأستاذ فريد وجدى بأن الجنون والحوادث الأخرى التى تنتج منها ليست شاذة بالمرة ، بل كثيرة الحدوث فى الواقع ، فإذا قال لنا إنها تحدث لغير المتعلمين ؛ أجَبْنا بأن هؤلاء فى الواقع هم العدد الأكبر بين « الروحانيين الحديثين » فى كل الأقطار ، وليس لنا الحق فى أن نترك هؤلاء الناس معرضين بدون وقاية من مثل هذه الأخطار ، التى تنشأ من انتشار الأفكار الضارة ، وهم على استعداد لقبولها بدون فحص ، ولا روية .

بل ينبغى أن يكون العكس تماماً ، ونضيف فوق ذلك أننا لا نظن مطلقاً أن التعاليم الخارجية كما تحصل فى المدارس والجامعات الغربية ؛ يمكن أن تحفظ صاحبها من هذه الأخطار البتة ... وذلك لأن مايسمون بالأشخاص (المتعلمين) ، أو حتى مشاهير « العلماء » يجهلون تماما هذه الأشياء التى نبحث هنا .

أما تفسير الظواهر بواسطة مقدرة « الوسيط » نفسه فهذا صحيح ، ولكننا غير ملزمين بأن نقبله أو نرفضه ، لأن بعض الغربيين استساغه ، حَدَثَ من هذا القبيل أنهم قرروا أشياء — بدون علم منهم — لم تكن بمستحدثه بالمرة ، بل كانت معروفة فى الشرق منذ آلاف السنين ، ولسوء الحظ نرى أن الغربيين ، يفهموها فى معنى ضيق جداً ، لأن معرفتهم بطبيعة الإنسان الحقيقية

ومقدرته ناقصة ، ولذلك لم يستطيعوا استعمال ذلك التفسير فى حالات كثيرة يناسبها تماماً ، ولا ينبغى أن نذكر أن تلك القوى التى لها نصيب هام فى توليد هذه الظواهر هى قوى عقلية ، بل هى قوى نفسية تختلف تماماً ، ويتسع مدلولها ومعناها أكثر من الأولى ، ولكن ينبغى أن نكرر ثانياً أنها نفسية وليست روحية بالمرة ، مثل تلك العناصر التى يتركها الرجل بعد موته ، والتى ليست لها صلة بالجزء الخالد من كائنه .

ونحن إنما نصر على هذه النقطة — لأنه ولو أننا أو صحناها سابقاً — إلا أن الأستاذ فريد بك وجدى، يجعلنا نتكلم عن هذه كأنها عناصر روحانية ، وإذا قلنا إن هذه ألطف وليست (من القوى التى فى الجسم) ، بل (من تلك التى فى عالم الجسم والحس) أى : أنها من تلك التى تدرس بواسطة العلوم الطبية الحديثة ، فإنها تتسبب من طبيعتها النفسية ، وذلك لأن عبارة (العالم اللطيف) هى ترجمة أدبية للتعبير الهندى الذى يقابل « العالم النفسى » - هكذا يعبر عنه للمقارنة بينه وبين العالم الحسى - ولا يمكن أبداً أن يطابق « العالم الروحى » .

وعلى أية حال فإن القوى التى تعمل فى هذه الظواهر - سواء كانت تخص الوسيط نفسه أو أى حى آخر سواه ، أو كانت قوى أخرى خارجية مثل القوى السابحة أو قوى تنبعث من أحياء مثل الجن - هذه القوى كما ذكرنا سابقاً تقرب جداً من العالم الحسى، ويجب أن تعتبر حقيقة من طبيعة منحطة ، وفى مثل كل هذه الحالات لا تتداخل القوى العلوية مطلقا ، ولو أن الأستاذ فريد بك وجدى يؤكد ذلك . . . بينما يعطينا سبباً معقولا لهذا التأكيد - ونحن مضطرون لأن ننكر ذلك إنكاراً باتاً - وحينئذ يسقط من تلقاء نفسه كل

ما يحتم علينا أن نصدق ظهور شخصية أحد الموتى ، ولو أنه ينبغى علينا أن لا نقرر كذب ذلك، مثل ما نقرر إذا رأينا أحد القردة يقلد حركات الإنسان ، وتستمد هذه القوى ر الحس من الأشخاص الذين تظهر بينهم ، ولذا فإن الأفكار التى تعبر ها هذه القوى تطابق تماماً ما يجول فى خاطر الأشخاص الذين يتسمعونها، وهذا يفسر لنا لماذا تتناقض ما تسمى [الأرواح] بعضها مع بعض .

خذ مثلا لذلك : بينما تشيع نظرية « التقمص » فى فرنسا - إذ لا يعترف بها فى انجلترا وأمريكا - وقد رأينا « أرواحاً » مادية فى بعض الرسائل التى تسلمت فى هولندا منذ عشرين سنة ، تنكر الخلود وتثبت أن حياة الإنسان تبقى بعد الموت على الأكثر لمدة ١٥٠ سنة .

والآن ينبغى أن نضيف ما يأتى :

يوجد أشياء لا يمكن أن تخضع لوسائل العلوم الغربية الحديثة المادية ، ولذا يقال عنها إنها خرافات أو من خيال القدماء، بينما هى فى الواقع المنفذ الذى يؤدى إلى نوع آخر من العلوم يختلف تماماً عن العلوم المادية ، وهذا العلم القديم هو الذى يجدر بنا أن نسميه - بحق - العلم الصحيح .

وإننا لا نخاف إذا قررنا وجود نفوس بالكواكب ، وأن لها تأثيراً فعالا على الحوادث الأرضية ، ولا نخاف أيضاً إذا اعترفنا - كما علمنا القدماء - بأن العناصر ليست أربعة بل خمسة، وأنه لا يوجد أكثر من ذلك أو أقل، وأن هذه العناصر ليس لها أية صلة بما نسميه الكيمياء الحديثة « المواد الأولية

البسيطة » لأنها - أى العناصر - ليست أجساماً بل هى تلك التى تكون منها الأجسام .

لا يمكننا أن نعطى أى أهمية - إذا نظرنا إلى العرفة الحقة - للعلوم الحديثة، وهى على الدوام متغيرة غير ثابتة فى تفسيراتها ، فإذا سلمنا بالنتائج العملية التى تنتج من أشياء كثيرة كالكهرباء مثلا بدون معرفة لطبيعتها، فلا نسمى هذا علماً ، بل يجب أن يسمى فقط صناعة .

فلا نستطيع مشاركة الأستاذ فريد بك وجدى فى تفاؤله بنتائج البحوث الغربية ، التى تظهر لنا كأنها تحاليل لانهاية لها ، ظاهرية لا نفع فيها .

وبما أننا نرى أن التقدم فى هذه البحوث يؤدى إلى عكس كل ما هو طبيعة روحية ، فإننا لا نشك فى صعوبة بل واستحالة الوصول بهذه البحوث إلى فتح الطريق إلى العالم الروحانى .

وإذا افترضنا حدوث ذلك بأى حادث كان ، فإن ذلك سيكون نهاية العلم الحديث والمدنية كما يفهمها الغربيون ، ومع ذلك فمن المحتمل جداً ، أن يصل الغربيون إلى ذلك .

وأخيراً نقول : إن الشرق يجب أن يحتفظ بعلمه الخاص فإنه أصدق وأتم وأكثر انتشاراً فى كل الوجود بدلا من تضيق دائرته فى عالم المادة فقط ، ولسنا كما يظننا الأستاذ فريد بك وجدى نعيش فى زمن غير زمننا ، لأن زمننا يختلف عن زمن الغربيين ، فبينما يحلم هؤلاء (بالتقدم) حتى يستيقظوا على صوت إحدى الكوارث - نعرف أن العهد الذهبى كان فى الحق عند ابتداء التاريخ البشرى إذ أعطيت كل المعرفة للإنسان فى المبدأ ، أخذت تختفى عنه

تدريجياً بتوالى العصور ، وتنتقل رويداً من عالم الروح إلى عالم المادة ، وأخيراً نحن نؤكد أن تلك العقول التى تأثرت بالفكر الغربى سوف لا تزال تتهمنا بأن كل ما نقرره خرافات ، ولكن ذلك لا قيمة له من جهتنا ، وإنما نحن نوجه كلامنا هذا لا إلى مثل هؤلاء الأشخاص ، بل إلى الشرقين الحقيقيين الذين يصرون دائماً على أن يكونوا - كما هو الواجب عليهم - محافظين على الحكمة الأبدية ؟

عبد الواحد يحيى

القـــوى السابحـــة [1]

عندما بينا العناصر المختلفة التى تتضافر فى إحداث تلك الظواهر التى ينسبها الروحانيون المحدثون إلى ما أسموه « بالأرواح » ؛ أشرنا بصفة خاصة إلى واحد منها يلعب دوراً خطيراً : هو عنصر القوى اللطيفة التى أسماها « الطاو ـ صى » الصينيون [بالقوى السابحة] ، ولقد يكون من المهم الآن أن نعطى تفسيراً تكميلياً لهذه النقطة ، حتى نتجنب الخلط الذى يقع فيه بسهولة أولئك الذين لهم دراية بالمعارف الغربية الحديثة أكثر مما لهم من علوم الشرق القديمة ، وهم لسوء الحظ كثيرون فى أيامنا هذه .

لقد نبهنا إلى أن القوى التى نعنيها هنا — لكونها ذات طبيعة نفسية — تكون بالضرورة ألطف من قوى العالم الحسى أو الجسمى ، ولهذا فينبغى أن لا نخلط بينهما حتى ولو تشابهت نتائجها مع نتائج القوى الحسية بعض الشبه ، مثل هذا التشابه يوجد فى الواقع على وجه الخصوص مع نتائج الكهرباء ، ولكن هذا التشابه يفسره ما يوجد من تطابق بين سائر القوانين التى تسير كل العوالم وكل الحالات . . ذلك التطابق الذى بواسطته يتحقق التناسق والانسجام فى درجات الوجود كلها .

ولهذه القوى السابحة أنواع متباينة تمام التباين ، ونحن نجد فى العالم الحسى أنواعاً عديدة من القوى ، ولكننا نجد فى العالم النفسى أن الأمور أكثر تعقيداً مما هى هنالك ، ولهذا فالميدان النفسى أكثر امتداداً من الميدان الجسمى ،

---

(١) مجلة المعرفة : جمادى الثانية ١٣٥٠ هـ ، نوفمبر سنة ١٩٣١ م .

وأقل ضيقاً منه إلى حد كبير ، ويندرج تحت هذه التسمية العامة (القوى السابحة) كل القوى الخارجة عن الأفراد ، وأعنى بذلك كل القوى التى تفعل وتؤثر فى الوسط الكونى من غير أن تدخل فى تركيب أى كائن معين ، وفى بعض الحالات تكون هذه القوى بذاتها ، وفى حالات أخرى تكون صادرة عن عناصر نفسية منحلة كانت تخص فيما سبق كائنات حية ؛ ومن بينها الإنسان كما أوضحنا ذلك فى المقال السابق . على أن المقصود فى كل الحالات إنما هو صنف معين من القوى الطبيعية التى لها قوانينها كما لغيرها من القوى ، والتى لا تشذ عن تلك القوانين كما لا يشذ غيرها من القوى عن قوانينه ، وإذا لاح أن فعلها إنما يجرى غالبا اتفاقاً وصدفة ومن غير نظام ؛ فما ذلك إلا لجهلنا بقوانينها ، ويكفى أن نلقى نظرةً إلى نتائج صاعقة مثلاً ، النتائج التى ليست أقل غرابةً من هذه القوى لنعلم أنه لا يوجد البتة شيء فى هـــذا العالم لا يجرى وفق قانون .

وهذه القوى — كغيرها — يمكن أن يجمعها ويستخدمها أولئك الذين يعرفون قوانينها ، وهنا يجب علينا أن نميز بين حالتين :

تدبير هذه القوى والتصرف فيها على الوجه المتقدم ؛ يمكن أن يكون بواسطة كائنات تنتسب لنفس العالم اللطيف كالكائنات المعروفة بالجن أو بواسطة أناس أحياء يوجد لديهم حالات مطابقة لذلك العالم اللطيف مما يؤهلهم للتأثير فيه ، وهؤلاء الذين يتصرفون فى هذه القوى بإرادتهم — سواء أكانوا من الإنس أم من الجن — يلبسون تلك القوى نوعاً من الشخصية المصطنعة المؤقتة ، وتلك الشخصية فى حقيقة الأمر ليست إلا إنعكاساً لشخصيتهم الذاتية وطيفاً لها ، ولكنه يحدث أحياناً أيضا أن هذه القوى عينها يمكن أن تجتذب وتدبر من غير شعور بواسطة كائنات تجهل قوانينها ولكنها هيئت وأعدت

لذلك بما لها من خصائص شاذة فى طبائعها ، ومثل تلك الكائنات ما اتفق اليوم على تسميته [بالوسطاء] وهؤلاء أيضاً يعيرون القوى التى ينقلون بها شخصية ظاهرية ، ولكنهم يخسرون بإزاء ذلك سلامة حالاتهم النفسية التى يعتريها من تلك القوى اضطرابات قد تصل إلى حد الانحلال الجزئى فى الشخصية .

ولنا على هذا النوع من الاستحواذ اللاشعورى ، أو اللاإرادى الذى يقع فيه الكائن تحت رحمة القوى الخارجية بدلا من تسلطه عليها —

ملاحظة هامة : هى أن جاذبية هذا النوع يمكن أن تؤثر فى هذه القوى ليس فقط بوساطة أناس [وسطاء] كما تقدم ذكره ، ولكنه يحدث أيضاً بوساطة كائنات حية أخرى بل وحتى بوساطة أشياء غير حية ، أو بوساطة أمكنه معينة تتركز فيها تلك القوى فتنتج بعض الظواهر الشاذة ، هذه الكائنات والأشياء إذا جاز لنا أن نستعمل اصطلاحاً يبرره التشابه بقوانين القوى الطبيعية — إنما تقوم مقام « الأجهزة المكثفة » ، وهذا التكثيف قد يتم من تلقاء نفسه ، ومن جهة أخرى يستطيع الذين يعرفون قوانين هذه القوى اللطيفة أن يركزوها أيضاً بطرق خاصة وذلك بالاستعانة بمواد أو أشياء معينة طبيعتها توافق النتائج المرغوب فى تحصيلها .

وعلى عكس ما تقدم يمكن لهؤلاء أيضاً أن يحلوا تكاثف تلك القوى اللطيفة التى كونوها قصداً بأنفسهم أو بواسطة غيرهم ، أو التى تكونت بذاتها من غير تدخل .

ولهذا التحليل لم يجهل الإنسان — فى أى عصر من العصور — ما للأطراف المعدنية المدببة من منفعة فى تحليل أو تفريغ القوى المكثفة ، وفى هذا مشابهة

شديدة بتفريغ الظواهر الـكهربائية ، وإنه ليحدث إذا ما لمس الإنسان بطرف معدنى مدبب نفس النقطة التى يوجد منها ما يمكن أن يسمى (عقدة التكاثف) فإنه يصدر عن ذلك شرار ، ولو أن هذا التـكثيف قام به ساحر - كما يحدث كثيراً - فإنه يجوز أن يجرح أو يقتل برد فعل الضربة مهما كان موضعه . ومثل هذه الظواهر شوهدت فى كل زمان وفى كل مـكان .

وعمليتا التـكثيف والتحليل المشار إليهما لهما نظائر فى حالات تستخدم فيها قوى من نوع آخر كما فى علم الـكيمياء ، لأنهما إنما ترجعان إلى قوانين كلية شاملة كانت معروفة فى العلم القديم وخاصة فى الشرق ، ولـكنها مجهولة عند الحديثين بتاتا على ما يظهر ، وفى الفرجة التى تنحصر بين هذين الطرفين (التـكثيف والتحليل) يستطيع الشخص الذى يدبر هذه القوى اللطيفة أن يلبسها نوعاً من الشعور مما يجعل لها شخصية ظاهرية تخدع الذين يواجهون تلك القوى المـكثفة فيظنون أنهم أمام كائنات حقيقة .

وإمـكان تـكثيف تلك القوى اللطيفة فى أشياء تختلف طبعائعها تمام الاختلاف ، ثم الحصول على نتائج ذات مظهر شاذ غير عادى من ذلك التـكثيف - إنما يميط اللثام عن خطأ الرأى الذى يعتنقه المحدثون والذى يذهب إلى أن « الوسيط » لابد أن يكون إنساناً . وينبغى أن ننبه هنا إلى أنه قبل الروحانية الحديثة كان استخدام الإنسان كمـكثف أمراً قاصراً على أحط أنواع السحرة ، لما يحيق بالوسيط من مخاطر مهلـكة من جراء ذلك الاستخدام .

ونضيف إلى ما تقدم أنه بخلاف ما سبق من وسائل التـكثيف ، توجد وسيلة أخرى مخالفة لها تماماً ، لا تقوم على مبدأ تـكثيف القوى اللطيفة فى كائنات أو أشياء خارجة عن الشخص الذى يقوم بهذا العمل ، ولـكنها تقوم

على مبدأ تكثيفها فى نفسه ، وذلك كيما يستخدمها وفقاً لإرادته ، وكيما يوجد تحت تصرفه إمكان مستديم لإنتاج ظواهر معينة ، واستعمال هذه الطريقة أمر مراعى فى الهند على وجه الخصوص ، ويحسن بنا أن نشير هنا إلى أن هؤلاء الذين يتوفرون على الحصول على نتائج غير عادية بهذه الطريقة ، أو بغيرها مما سلف ذكره - ليسوا أهلا لما يسبغه الناس عليهم من جدارة وتفوق ، وإنما هم فى الحقيقة أناس وقف نموهم الباطنى فى درجة معينة - لسبب من الأسباب - فلم يستطيعوا أن يسيروا إلى أبعد منها ، فنتج عن ذلك أنهم توفروا على بذل نشاطهم فى أشياء من نوع أعلى .

على أن المعرفة التامة الدقيقة بتلك القوانين التى تسمح للانسان بأن يتصرف فى القوى اللطيفة إنما كانت على الدوام قاصرة على عدد يسير من الناس ، وذلك لما ينتج من المضار إذا ما ذاعت بين من لهم مقاصد سيئة ، ويوجد فى الصين كتاب منتشر جداً عن « القوى السابحة » ولكنه لا يتناول غير تطبيق ضيق لتلك القوى على نشأة الأمراض وكيفية علاجها ، وما عدا هذا ألا يكون فى الحقيقة غير موضوع دراسة شفوية محضة ، ومع ذلك فإن الذين يعرفون قوانين القوى السابحة معرفة تامة ، يكتفون بتلك المعرفة ويزهدون تمام الزهد فى تطبيقها واستخدامها عملياً ، وهم ينكرون على أنفسهم أن يثيروا أى ظاهرة من ظواهر تلك القوى بقصد إدهاش الناس أو بقصد إشباع نزعة حب الاستطلاع عندهم ، وإذا تحتم عليهم مع ذلك أن يحدثوا بعض الظواهر — لأسباب مباينة تماماً لما تقدم ذكره من الأسباب وفى ظروف خاصة — فإنهم يفعلون ذلك بوسائل مخالفة تماماً لما هو معروف ، ويستعملون فيه قوى من نوع آخر ، ولو تشابهت النتائج الظاهرة .

وإذا وجد هنالك تشابه بين القوى الحسية كالكهرباء ، وبين القوى اللطيفه

أو النفسية ، فإنه يوجد أيضاً مثل هذا التشابه بين هذه الأخيرة ، وبين القوى الروحية التى يمكن - مثلا - أن تتركز بدورها فى أمكنة معينة ، أو فى أشياء معينة أيضاً ، ويمكن أن تصدر نتائج تتشابه فى الظاهر عن تلك القوى المتباينة فى طبائعها ، وهذه المشابهات الظاهرية ، هى مصدر الخلط والانخداع الكثيرين الذين لا يمكن أن يتحاشاهما الذين يتوفرون على تحقيق تلك الظواهر :

فالسحرة يمكنهم - ولو إلى حد محدود - أن يقلدوا بعض كرامات الأولياء ، ومع هذا التشابه الظاهرى فى النتائج ، فإنه ليس يوجد شىء مشترك بين مصادرها المتباينة فيما بينها تماماً .

وليس يدخل فى موضوعنا هذا التكلم عن فعل هذه القوى الروحية ، ولكننا مما تقدم نستطيع على أقل تقدير أن نستمد النتيجة المهمة وهى :

أن الظواهر بمفردها لاتقوم دليلا ، ولاتنهضه حجة، على شىء من الأشياء، وإنها لا تستطيع أن تثبت صحة نظرية من النظريات أيا كانت ، إذ أن نفس الظواهر يجب أحيانا أن تفسر بصورة تختلف باختلاف الأحوال والظروف ، وإنه لينذر أن لا يوجد لظواهر معينة إلا تفسير واحد ممكن .

ونخلص من هذا كله إلى أن العلم الحقيقى لايمكن أن يتكون إلا إذا بدأ من فوق ، أعنى من « مبادىء عالية » . نطبقها على الوقائع التى ليست فى الحقيقة إلا نتائج لتلك المبادىء تقرب أو تبعد عنها ، وهذا نقيض ما يفعله العلم الغربى الحديث تماماً ، ذلك العلم الذى يريد أن يبدأ من الوقائع ليستخرج منها تفسيراً شاملا كما لو كان الأكثر يمكن أن يستخرج من الأقل وكما لو كان الأوضع يتضمن الأرفع ، وكما لو كانت المادية يمكن أو تكون معياراً للروح وحداً لهـا ؟

عبد الواحد يحيى

الفلسفة الحديثة

فى الحضارة الروحانية لا يتصور أن إنساناً يزعم أنه صاحب فكرة معينة ابتدعها أو اخترعها . وإذا زعم ذلك شخص ، فإن هذا يكفى فى إزالة الثقة بفكرته . لأنها تعد حينئذ مجرد خيال : إذ أن الفكرة إذا كانت حقيقة ، فهى مشاع بين كل من هم أهل لفهمها . أما إذا كانت خطأ فإنه لا يفتخر أحد بادعاء اختراعها . والفكرة الحقيقية لا يمكن أن تكون « جديدة » : ذلك أن الحقيقة ليست نتاج العقل الإنسانى . إنها موجودة مشتقلة عنا ، ومهمتنا أن نعرفها ، أما إذا خرجنا عن دائرة هذه المهمة فإنه لا يمكن أن نخرج إلا الخطأ . ولكن أيبحث الحديثون عن الحقيقة ، وهل يعلمون معنى هذه الكلمة ؟ . إن الكلمات فقدت معانيها فى هذا العصر الحديث : فأصحاب : مذهب « البرجماتسم » المعاصرون يعرفون « الحقيقة » بأنها كل ما يصل بالإنسان إلى منفعة عملية . وهم فى هذا يبتعدون كل البعد عن النظام الروحانى .

إن الفلسفة الحديثة : لأنها فردية شخصية ، قد وصل بها الأمر إلى إنكار البصيرة ووضع العقل فوق كل شىء . ولقد جعلت منه — وهو الملكة الإنسانية المحضة — الجزء الأسمى من القوة الدراكة ؛ بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك فقصرت القوة الدراكة على العقل ؛ وهذا هو مذهب «العقليين»[1] والمؤسس الحقيقى له هو فى الواقع ديكارت . وقصر القوة الداركة على العقل ليس إلا مرحلة أولى ؛ إذ أن العقل نفسه أخذ ينزل شيئاً فشيئاً عن صفته النظرية إلى

---

(١) Rationalisme مذهب فلسفى يرفض الوحى : كمصدر للمعرفة ، ويزعم تفسير كل كل شىء بواسطة العقل وحده .

أن حدد عمله بأنه على الخصوص الناحية العملية . وهذا التحديد كان تابعاً لزيادة الاهتمام بالتطبيق العملي، ذلك الإهتمام الذى يجعل الناحية العلمية النظرية فى المرتبة الثانية . على أن ديكارت نفسه كان فى الحقيقة معنياً بالتطبيق العملى أكثر من عنايته بالعلم البحت . وليس هذا كل شيء : فإن الفردية الشخصية فى الفلسفة قد أدت بالضرورة إلى المذهب الطبيعى[١] لأن كل ما هو خارج عن الطبيعة بعيد عن متناول الفرد باعتباره فرداً . والمذهب الطبيعى وإنكار ما وراء الطبيعة . . هما شيء واحد . وإذا كانت الفلسفة الحديثة قد أنكرت البصيرة ، فإنه لم يعد مجال للبحث فيما وراء الطبيعة . بيد أنه إذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يصرون على إقامة مذاهب « مزيفة » فيما وراء الطبيعة ، فإن غيرهم قد اعترف فى صراحة بعدم إمكان ذلك؛ ومن هذه النظرة نشأ «النسبيون[٢] » فى مختلف صورهم ، سواء فى ذلك «المذهب[٣] النقدى» لكانت، أو «الفلسفة الوضعية[٤] » لأوجيست كونت ؛ وبما أن العقل نفسه نسبى ، ولا يمكن أن يثمر حقيقة إلا فى محيط نسبى كذلك : فإنه من الواضح أن مذهب « النسبية » هو النهاية المنطقية للمذهب العقلى .

وبذلك يهدم المذهب العقلى نفسه : ذلك أن « الطبيعة » و « الصيرورة » يعنيان فى الواقع شيئاً واحداً : ولذلك كان الطبيعى المنطقى المنسجم مع منطقه

---

(١) «Naturalisme» المذهب الطبيعى ، هو المذهب الذى يعزو كل شيء إلى الطبيعة ، ويرى أنها المبدأ الأول .

(٢) المذهب النسبي : Relativisme مذهب فلسفى يرى أن المعارف الإنسانية كلها نسبية .

(٣) Criticisme مذهب فلسفى لكانت يبحث فى الحدود التى يجب أن يتخطاها العقل إذا أراد السير فى دائرته التى خلق لها .

(٤) Positivisme : هو مذهب فلسفى أسسه أوجيست كونت ، يزعم أن الإنسان لا يمكنه أن يعرف فى دقة إلا الحقائق التى تستمد عن طريق الملاحظة أو التجربة .

فيلسوفا من فلاسفة الصيرورة ، ومثله الأعلى يتحقق فى مذهب « النشوء والارتقاء » . وهذا المذهب هو الذى ينتهى إلى معارضة «المذهب العقلى» فى أنه يأخذ على العقل أنه لا يمكنه أن يقوم بدوره قياماً صحيحاً فى دائرة التغير والصيرورة والكثرة : أنه يعجز عن أن يجعل قواعده تحتوى على التغيرات الحسية اللانهائية المتأرجحة . ومن هنا كانت الصورة الحديثة التى لبسها مذهب النشوء والارتقاء : أعنى مذهب « الحدس » لبرجسون وهو مذهب فردى لا يتمشى مع الاتجاه الروحانى ، مثله فى ذلك مثل «المذهب العقلى» . وإذا كان صاحب مذهب الحدس قد انتقد المذهب العقلى فإنه قد نزل إلى مرتبة دنيا حينما التجأ إلى ملكة أحقر من العقل هى الحدث الحسى الذى لم يحدده برجسون تمام التحديد ، والذى امتزج قليلا أو كثيراً بالخيال وبالغريزة وبالعاطفة ؛ وهكذا وصل بنا الأمر أننا لم نعد بصدد البحث عن « الحقيقة » ولكن بصدد عن « الواقع » ، بل « الواقع » المقتصر على الدائرة الحسية مفهومة على أنها فى جوهرها متغيرة متأرجحة . بين هذه النظريات جردت القوة الدراكة عن جميع أقسامها السامية واقتصر فيها على أدنى أجزائها ؛ بل إن العقل نفسه لم تعد له من قيمة إلا فى الأعمال الصناعية . وبعد كل ذلك لم يعد إلا خطوة واحدة هى الإنكار المطلق لقيمة القوة الدراكة ، وللمعرفة . ووضع « المنفعة » بدل « الحقيقة » : وهذا هو مذهب « البرجماتسم »[1] » وهو مذهب لا يستشرف المعرفة الروحانية ، ولا يتجه إلى السماء يستلهمها الرشاد الحق ، بل إنه لا يقف بنا عند حد المعرفة البشرية الإنسانية كالمذهب العقلى : إنه ينزل بنا إلى مرتبة أقل من المرتبة الإنسانية ، مرتبة تستضىء « باللاشعور »

---

(١) عقيدة تجعل الفائدة العملية مقياس الحقيقة : فالحقيقة فى هذا المذهب تطلق بكل بساطة على كل ماله فائدة عملية .

الذى يجعله وليم جيمس الواسطة إلى الاتصال بالألوهية . وفى هذا قلب للأوضاع الطبيعية .

تلك هى خاتمة الفلسفة فى العصر الحديث وهى خاتمة ما كان يمكن أن توجد فى حضارة روحانية .

لا نريد أن نطيل فى الحديث عن الفلسفة الحديثة فإنه يجب أن لا نعطيها من الأهمية أكثر مما ينبغى لها : إنها من وجهة نظرنا لا تعدو أن تكون نصاً يعبر عن اتجاه البيئة فى زمن معين . إنها تعبر عن اتجاه البيئة ولكنها لا تنشئها . وأنه لمن المؤكد أن الفلسفة الحديثة تنتسب فى أصولها إلى ديكارت ؛ ولكن تأثير ديكارت فى عصره أولا ، ثم فيما تلاه ، ما كان يمكن أن يوجد لو لم تكن الآراء التى قال بها تتجاوب مع اتجاهات سبقته وعاصرته . إن الروح الحديثة وجدت فى الديكارتية مرآة تصورها . فلما نظرت فى المرآة تبينت نفسها فى وضوح أوضح . على أننا نجد فى كل الميادين أن الظواهر التى تشبه الديكارتية هى نتائج أكثر منها مبادئ مبتدعة . إنها ثمرة عمل موجود وإن كنا لا نشعر به فى وضوح . وإذا كان ديكارت أوضح مثل للانحراف الحديث فإنه ليس المسئول عن ذلك وحده ؛ بل ليس أول مسئول عن ذلك .

من جو الفلسفة إلى جو التصوف

إعرف نفسك بنفسك (1)

وهو بحث فلسفى صوفى

كثيراً ما تقال هذه الجملة - إعرف نفسك بنفسك - وكثيراً ما يخفى القصد وبين هذا القول ، وذلك الغموض ؛ يعترضنا سؤالان :-

أولهما : ما هو المصدر الأصلى للجملة ؟ وثانيهما : ما مدلولها الحقيقى وما ترمى إليه من أغراض ؟

قد يخيل لبعض القراء ؛ عند أول وهلة . أن السؤالين مفترقان ، لا رابطة ولا صلة تجمعهما . وعند تدقيق النظر ، والبحث والتمحيص ؛ سيثبت لهؤلاء أن السؤالين مرتبطان ببعضهما كل الارتباط .

* * *

إذا سألنا أغلبَ مَنْ درسوا الفلسفة اليونانية ؛ عن الإنسان الذى فاه بهذه الحكمة ، لما تردد فريق منهم فى الإجابة بأن القائل سقراط . . بينما يقول فريق ثان أفلاطون . . ويقرر فريق ثالث بأنه فيثاغورث .

من هذا التضارب فى الرأى ، وذلك التباين فى القول ؛ نستطيع الحكم بأن الجملة تقرأ فى كتاب لأحدهم باعتباره مصدرها .

---

(١) مجلة المعرفة : ذو الحجة سنة ١٣٤٩ ، مايو سنة ١٩٣١ .

وقد يبدو حكمنا هذا جائراً ، ولـكنه فى الحق حكم صحيح ، تثبت للقارىء صحته عندما يعلم أن اثنين من أولئك الفلاسفة ــ هما فيثاغورث وسقراط ــ لم يخلفا شيئاً مكتوباً أو منقوشاً . وأما ثالثهم أفلاطون فإن أحداً ــ بالغاً ما بلغ من العلم بالفلسفة ــ لا يستطيع أن يميز على التحديد ، ما قاله أفلاطون نفسه ، أو ما قاله بلسان أستاذه سقراط ، الذى لم نعرف أكثر آرائه إلا بواسطة أفلاطون ، وقد يكون أفلاطون استقى من مدرسة فيثا غورث بعض التعليم التى بثها فى محاوراته ، كما استقى من سقراط نفسه .

من هذا نرى : أن من الصعب جداً ، أن تحدد نسبة بعض العبارات إلى أحد الثلاثة ؛ فما ينسب لأفلاطون قد ينسب لسقراط بينما يكون سابقاً لوقت الإثنين معاً : فيكون صدر من المدرسة الفيثاغورية ، إن لم يكن من فيثاغورث نفسه .

والحق : هو أن المصدر الحقيقى لهذه الجملة لأقدم تاريخا من أولئك الفلاسفة أنفسهم ، بل لأكثر قدما من تاريخ الفلسفة نفسها وأكثر من هذا وذاك . إنها أسمى مجالا من مجال الفلسفة ذاته .

هذه العبارة ، وجدت محفورة على باب هيكل « أپولون » فى « دلفى » .. وإتخذها سقراط كما إتخذها غيره قاعدة لتعاليمهم ــ وإن اختلفت التعاليم ، وتباينت المقاصد ــ ومن المحتمل جداً أن فيثاغورث إستعملها قبل سقراط نفسه.

والذى نفهمه من هذا . هو أن أولئك الفلاسفة حاولوا أن يظهروا لنا ، بل أظهروا لنا بالفعل : أن تعاليمهم لم تـكن من تلقاء أنفسهم فحسب ، بل كانت من مصدر أسمى ، ومنزلة أرفع ، يتناسبان مع مصدر الوحى ، ومنزلة الإلهام .

لهذا نراهم مختلفين جد الإختلاف عن الفلاسفة الحديثين ، الذين يحاولون جهد طاقاتهم ، أن يقولوا شيئاً جديداً يدّعون أنه من بنات أفكارهم الخاصة ، وأنّ ما يبدونه من آراء وقف عليهم . . كأن الحقيقة مِلك لشخص معين .

والآن لماذا كان يود الفلاسفة القدماء أن يربطوا تعاليمهم بهذه العبارة ، أو بعبارات تماثلها ؟ ولماذا يمكننا أن نقول : إن هذه العبارة أسمية منزلة من الفلسفة نفسها ؟ .

للجواب عن الفقرة الأخيرة من هذا السؤال ، نقول : إنه منحصر فى المعنى الأصلى المقصود من اشتقاق كلمة الفلسفة نفسها . . . التى قيل إن أول من إستعملها فيثاغورث .

فكلمة « فيلسوفيا » تعنى تماماً حب (سوفيا) أى « الحكمة » والميل للحصول عليها . وقد استعملت لتدل دائماً على كل تحضير للحصول على الحكمة ، وعلى الأخص لمحبها ، حيث تساعده على أن يصير (سوفوسَ) أى « حكيماً » وبما أن الوسيلة لا تؤخذ على أنها غاية ، كذلك حب الحكمة ليس هو الحكمة بذاتها .

وبما أن الحكمة هى بذاتها المعرفة الحقيقية الباطنة ، فإنه يمكن القول بأن المعرفة الفلسفية ، إنْ هى إلا المعرفة السطحية الخارجية ، فليس لها قيمة فى نفسِها ، أو مِنْ نفسِها ، وما هى إلا درجة أولية ، فى الطريق المؤدية للمعرفة السامية الحقة التى هى الحكمة .

معروف لمن درسوا الفلسفة ، أن معظم الفلاسفة القدماء ، كان لهم فى مدارسهم ، نوعان من التعليم : خارجى ، وداخلى .

أما الأول : فهو ما كان مكتوبا . وأما الثانى : فيصعب علينا معرفة طبيعته على التحقيق ، وذلك لقصره على القليلين أولاً ، ولصبغته السرية ثانياً ، وهذه الصبغة وتلك القلة دليلان على وجود غرضٍ أسمى من تعلم الفلسفة الذى لا يستطيع تأديته . على أنا نعتقد أن لهذا التعليم السرى أقوى صلة مباشرة بالحكمة ذاتها ، والذى ما كان عمادة ـ فى حالٍ ما ـ العقلُ أو الإستدلالُ المنطقى : كالفلسفة التى تعتمد عليها ، وبهما سميت المعرفة العقلية .

ومسلم من الفلاسفه القدماء بأن المعرفة العقلية ـ أى الفلسفة ـ ليست هى المعرفة العليا الحقة ، وبعبارة أخرى : ليست هى الحكمة ذاتها .

لكن ، هل يمكن أن تعلم الحكمة كما تعلم المعرفة الخارجية بواسطة التلقين أو الكتب ؟ هذا مستحيل كل الاستحالة ، وسترى سبب ذلك والذى يمكننا أن نقرره هو أن التحضير الفلسفى ما كان ليكفى مطلقاً . لأنه لا يختص إلا بقوى محدودة هى نفسها العاقلة بينا يستمد التحضير للحكمة من الكون الكلى للإنسان نفسه .

وإذن فهناك تحضير آخر للحكمة أسمى منزلة من التحضير الفلسفى ، لا يلجأ فيه إلى العقل ، بل إلى النفس والروح ، وهذا ما نستطيع تسميته بالتحضير الباطنى ، الذى عرف أنه من الصفات التى امتاز بها تلاميذ الفيثاغورية للمتازون ، والذى ظل حتى مدرسة أفلاطون ، بل حتى وصل إلى الأفلاطونية الحديثة بمدرسة الإسكندرية ، التى ظهر فيها ذلك التحضير بوضوح تام ، كما ظهر جلياً فى نفس الوقت عند أتباع الفيثاغورية الحديثة .

لمثل هذا التحضير الباطنى ، تستعمل الكلمات على أنها صور رمزية لإحدى الوسائل التى تساعد على تركيز التأمل الباطنى . وبهذا التأمل ينقل الإنسان

إلى بعض حالات نفسية ، وروحية يمكنه فيها أن يسمو فوق درجة المعرفة العقليه ، التى وصل إليها سابقاً .

بما وأن هذه فوق مستوى العقل : فإنها — منطقياً — فوق مستوى الفلسفة ، إذ يستحيل علينا أن نعطى للفلسفة غير المعنى المعروف عنها ، فهى دائماً لتعيين ما يبحثه العقل فحسب .

ومن الغرابة أن الفلاسفة الحديثين ما يفيدون الفلسفه بهذا القيد كأنها كاملة فى نفسها . وغاب عن أذهانهم أن فوق فلسفتهم ما هو أسمى بكثير .

وقد عُرف هذا النوع من التعليم الباطنى فى الأقطار الشرقيه قبل أن يعرف فى اليونان ، حيث كان معروفاً عند الأخيرين باسم «ميستيريا» أى (المساتير)(١) وقد أدخل أولئك الفلاسفة ـ وخاصة فيثاغورث ـ تلك الميستيرات فى تعاليمهم لأنها كانت بالنسبة إليهم نوعاً جديداً ، ومعنى حديثاً للآراء القديمة . فقد كان يوجد أنواع كثيرة من تلك الميستيرات لها مصادر مختلفه . ولكن التى ألهمها فيثاغورث وأفلاطون كان لها صلة بطقوس معبد (أپولون) .

وقد احتفظت الميستيرات دائما بصبغه سرية ، ولذلك صار أسمها مرادفاً للسرّ فالمعنى الأصلى لتلك الكلمة هو الصمت التام ، فكل الأشياء التى تتصل بالغيبيات غير قابلة للتفسير بواسطة الكلمات ، وبهذا لم يكن لها من طريق التعليم غير طريقة الصمت . وجاء الفلاسفة الحديثون فلم يعرف أكثرهم تلك الطريقه ، فهربوا خلف استعمال الكلمات التى ندعوها من طريق التعليم الخارجى

---

(١) لم نعثر على ترجمة دقيقة تؤدى المقصود من كلمة (ميستيريا) وقد راجعنا الأستاذ فريد بك وجدى فى هذا ، فعبر عنها بكلمة (المساتير) وكنا نرى أنها قد تكون الغيبيات . أو الروز ، أو الخفائية . . فلعل أحد حضرات القراء يجد لها معنى أدق .

ويمكننا أن نؤكد أن هذا التعليم الصامت كانت طريقته الأشكال والرموز ووسائل أخرى ، يراد منها تهيئة الإنسان لحالات باطنية يمكنه فيها — بعد خطرات متتابعة — أن يصل أخيراً إلى المعرفة الحقيقية . وهذا هو الغرض الأساسى العام من (الميستيرات) وما يشابهها غرضاً أما (الميستيرات) التى تتصل بطقوس (أبولون) أو (بأبولون) نفسه ، فإنه ينبغى أن نشرح للقراء بأنه كان معروفاً فى عرفهم بأنه رب الشمس والنور ، والمعنى الروحى للنور وهو المبدأ المشرق الذى منه تنبعث كل المعارف من علوم وفنون .

وقد قيل إن الطقوس الدينية لمعبد [أبولون] جاءت من الأقطار الشمالية ، وقد ثبت هذا فى الكتب المقدسة [كالفيدا] الهندى ، و [الآفتشا] الفارسى ، وقد كانت دلفى معروفة بأنها المركز العام . وقد كانت دلفى معروفة بأنها المركز العام . وقد وجد فى هيكلها حجر يسمى [أومفالوس] يرمز إليه بأنه مركز العالم .

يظهر أن تاريخ فيثاغورث بل وإسم فيثاغورث نفسه له صلة وثيقة بالطقوس الدينية لأبولون ، فقد كان يسمى [بِيثْيُوس] . وقد قيل إن (بيثو) هو الإسم القديم لدلفى ، وإن المرأة التى كانت تتلقى وحى الآلهة فى الهيكل كانت تسمى [بيثيا] ومعنى [بيثيا جوراى] هو دليل (بيثيا) ، ودليل بيثيا هو نفسه . وقيل أيضا إن البيثيا هى التى أعلنت أن سقراط أحكم الرجال ، ومن هنا نستطيع أن نفترض أن لسقراط اتصالا خاصا بالمركز الروحى فى دلفى كفيثاغورث أيضا .

أضف إلى ذلك أن كل العلوم كانت تنسب إلى أبولون ، وبخاصة الهندسة والطب ، وقد كان أبولون يمثل نفسه كأنه يمارس هذه العلوم عامة والهندسة منها بوجه خاص . وفى مدرسة فيثاغورث كانت الهندسة وسائر فروع الرياضة هى

الجزء العام فى التحضير للمعرفة العليا ، وعند هذه المعرفة لم يكن لتلك العلوم لتترك جانبا ، بل كانت تستعمل كرموز للحقيقة الروحية . وقد كانت الهندسة لدى أفلاطون تحضيراً ضرورياً لكل فرع من فروع تعاليمه ؛ حتى صح عند قوله الذى حفره على مدخل مدرسته [لا يدخله إلا عالم بالهندسة] ، ويظهر معنى هذه الكلمات جليا إذا قورنت بقول آخر لأفلاطون نفسه [الإله يصنع الهندسة دائما] وهنا يجب أن نذكر أن المقصود بالإله المهندس هو أبولون .

وإذن فيجب ألا ندهش إذا ما رأينا الفلاسفة القدماء استعملوا تلك الجملة المحفورة على مدخل هيكل دلفى ؛ بعد أن عرفنا صلة الاتصال بينهم وبين طقوس أبولون ورموزه .

من كل ما تقدم يمكننا أن ندرك بسهولة ما الغرض الحقيقى لهذه الجملة ، ويمكننا أيضا أن ندرك أخطاء الفلاسفة الحديثين فيها ، وأساس خطئهم هذا ناشىء من أنهم أخذوا الجملة باعتبارها صادرة من أحد الفلاسفة الذى كثيرا ماينسبون إليه فكرة كفكرتهم ؛ مع أن الحقيقة هى أن الفكرة القديمة كثيرا ماتختلف عن الفكرة الحديثة كل الاختلاف ، ولذا يعطى كثير منهم لهذه الجملة معنى سيكوليجى (علم النفس) ، مع أن علم النفس هو دراسة الظواهر العقلية فحسب . أى دراسة الوصف الخارجى — لا الذاتى — للكائن الحى ، ويرى بعض الحديثين — وخصوصا الذين ينسبونها إلى سقراط — أنها وضعت لغرض خلقى هو البحث عن قانون داخلى لاستعماله فى الحياة العملية ، وكل هذه التفسيرات الظاهرة — ولو أنها أحيانا لا تكون باطلة — فإنها على الأقل لاتكفى تماما ، ولا تحقق الصفة المقدسة التى كانت لهذه الجملة فى أول الأمر ، وهى التى لها معنى أعمق كثيرا من هذه التفسيرات الظاهرة .

فإنها أولا تفيد أن التعليم الخارجى لا يمكن أن ينتج معرفة حقيقية ، وهى

التى يجدها الإنسان فى نفسه فقط ، ولا يخفى أن أى معرفة لا يمكن الحصول عليها إلا بالإدراك الشخصى ، وبدونه لا يكون التعليم نتيجة فعالة ، والتعليم الذى لا يوقظ فيمن يتلقاه ما يناسبه لا يمكن أن يعطى أى معرفة بالمرة ، ولذلك قال أفلاطون : إن كل مايتعلمه الإنسان هى فى قرارة نفسه ، وإن تجاربه وما يحيط به من الخارج ما هى إلا أسباب تساعده ليصير عالماً بما فى نفسه ، وهذا التيقظ الهام يسمى (أنا منيسيس) أى التذكر ، فإذا كان هذا صحيحا لأى معرفة فالأحرى أن يكون أصح بالنسبة للمعرفة الأسمى والأعمق ، فإذا شخص الحصول على تلك المعرفة فإن كل الوسائل الخارجية الحسية تصبح — شيئا فشيئا — غير كافية حتى أنها أخيرا تكون عديمة الفائدة ، ومع أنها ربما تساعد على الاقتراب عدة درجات نحو الحكمة فإنه لا يمكن بواسطتها الحصول عليها تماما ، ومن الشائع فى الهند أن (الجورو) الحقيقى أى (الشيخ) هو فى نفس الإنسان ، ولا ينبغى البحث عنه فى العالم الخارجى ، أما المساعدة الخارجية فربما تكون ضرورية فى البداءة ، وذلك لتجهيزه ليصير قادرا على أن يجد فى نفسه بنفسه مالا يمكنه أن يجده فى العالم الخارجى ، وخصوصا ما كان فوق مستوى المعرفة العقلية ، فإنه يحتاج لتحقيق حالات تتعمق دائما فى باطن الكائن وتتجه نحو المركز المرموز إليه بأنه القلب ، وعنده ينبغى انتقال إحساس الإنسان حتى يصير قادراً على الحصول على المعرفة الحقيقية ، وهذه الحالات التى كانت تتحقق فى [الغيبيات] كانت درجات فى الانتقال من العقل إلى القلب ، وقد كان فى هيكل دلفى حجر يسمى [الأومفالوس] يمثل به مركز الكائن الإنسانى ، وفى نفس الوقت مركز العالم ، وذلك للصلة التى بين (العالم الأكبر) ، و (العالم الأصغر) أى الإنسان ، ولذا نجد أن كل مافى أحدهما يتصل اتصالا تاما بما فى الآخر .

قال ابن سينا :

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومما يدعو إلى التسلية حقا هذا الاعتقاد الذى سار قديما بأن [الأومفالوس] كان قد سقط فى السماء ؛ وإنك لتدرك شدة اعتقاد اليونان القدماء فى هذاالحجر إذا علمت أنه يقرب من اعتقادنا فى الحجر الأسود الذى فى الكعبة المقدسه ، وهذا التشابه الذى بين العالم الأكبر والعالم الأصغر (الإنسان) هو الذى لا يجعل من أحدهما صورة للآخر ، وهذا الاتصال بين العناصر التى يحتويها كلاهما يبين لنا أن الإنسان يجب أن يعرف نفسه أولا لكى يمكنه أن يعرف كل ماحوله ؛ لأنه يمكنه أن يجد كل شىء فى نفسه ولهذا السبب تجد أن لبعض العلوم — وخاصة تلك التى كانت جزء من المعرفة القديمة ، والتى أصبحت غير معروفة تقريباً عند الحديثين — معنيين :

ففى الشهود العينى تشير هذه العلوم إلى « العالم الأكبر » فتعتبر صحيحة من هذه الوجهة ، كما يوجد لها فى نفس الوقت معنى أكثر عمقاً وهو يشير إلى الإنسان وإلى الطريق الباطنى الذى بواسطته يمكنه إدراك المعرفة الحقيقية فى نفسه ، أى : إدراك كائنه الخاص ، وقد قال أرسطو فى ذلك : « الكائن هو كل من يعرف ماهيته » ولذلك حيث توجد المعرفة الحقيقية — لا ظواهرها ولا شبحها — تندمج المعرفة والكون ويصيرا شيئاً واحدا .

والشبح فسره أفلاطون بأنه كل معرفة بالحس حتى المعرفة العقلية فإنها ولو أنها تتكون من درجه أعلى من مصدرها فإن مصدرها الأول هو الحس والمعرفة الحقيقية هى فوقمستوى العقل ، ولهذا نرى أن تحقيقها أو تحقيق ماهيةالكائن نفسه يشابه أو يطابق تكوين العالم كما ذكرنا سابقاً ، ولذا فإن بعض العلوم تحت ظواهر هذا التكوين قد استعملت (الغيبيات) القديمة على هذا المعنى

الثنائى ، كما وجد أيضا فى كل أنواع التعاليم التى كانت ترمى إلى نفس الغرض بين الأمم الشرقية ، وفى الغرب يظهر أن مثل هذه التعاليم وجدت فى زمن القرون الوسطى ، ولو أنها فقدت الآن تماماً لدرجة أن غالبية الغربيين ليس عندهم أقل فكرة عن طبيعتها أو وجودها أو مكانها .

مما سبق ترى أن المعرفة الحقيقية ليس طريقها العقل ، بل طريقها النفس والروح ، ويمكن أن نضيف إليهما الكائن الكلى ، لأنها ما هى إلا الإدراك الكلى لهذا الكائن فى كل حالاته ، وهذا هو نهاية وكمال المعرفة ، والحصول على الحكمة السامية ، وحقيقة كل ما يختص بالنفس وما يختص بالروح أيضا ، يظهر فقط الدرجات فى هذه الطريق إلى الجوهر الباطنى : أى النفس الحقيقية .

وهذا يمكن إدراكه فقط عندما يصل الكائن إلى مركزه الخاص ؛ متحدةً كل أجزاء فؤاده ومركزه فى نقطة واحدة ، عندها تظهر له كل الأشياء تحتويها جميعها تلك النقطة كما كانت فى مبدئها الأول ، وهذا يمكن أن يعرف كل الأشياء كما هى فى نفسه ومن نفسه ، كما يَظهر الوجود الكلى الأوحد فى وحدة جوهر الفرد : ومن السهل أن نرى الفرق بين هذا ، وبين علم النفس فى المعنى الحديث ؛ فإن الأول يسمو على الثانى بمعرفة للنفس أصح وأعمق ، والثانى ما هو إلا خطوة أولى فى الطريق . ويجب أن نلاحظ أن المعنى لا ينبغى أن يقصر على النفس لأن كلمة (النفس) مستعملة فى اللغة العربية بما يطابقها فى اليونانية (بسيخى) لا يظهر معناها إلا فى الجملة الأصلية التى تبحثها ، ففى مثل هذه الحالة لا يمكن أن يسرى لهذه الكلمة المعنى الدارج ، بل لابد أن يكون لها معنى أكثر سمواً يجعلها مطابقة لكلمة (ذات) ويجعلها تطابق النفس الحقيقية ، ولدينا ما يثبت هذا المعنى فى الحديث الشريف الذى يطابق الجملة اليونانية هو « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ » .

فعندما يعرف الإنسان نفسه، ويعرفها حقاً فى جوهره الباطنى أى : فى مركز كائنه ؛ عندئذ يعرف ربه ؛ فإذا عرف ربه عرف كل الأشياء التى منه تصدر وإليه ترجع ، يعرف كل الأشياء فى الوحدة السامية للمبدأ الإلهى الذى لا شىء خارج عنه على الإطلاق ، وهذا معنى ما قاله سيدى محيي الدين بن عربى من أن لا شىء يخلو من اللامحدود ؟

عبد الواحد يحيى